الفصل السادس

يوسف الشاروني

في قصة «حارس المرمى»، 1960، يقدم يوسف الشاروني رؤية ذات مذاق مختلف عن الموقع الذي تحتله كرة القدم في الحياة المصرية، ويكشف عن التداخل والتشابك بين اللعبة الشعبية ومفردات الواقع، حيث التناغم عبر مباراة فريقي المديرية والعاصمة، من منظور حازم حارس مرمى الفريق المحلي.

لاشك أن فريق العاصمة هو الأقوى والأعظم مهارة والمرشح للانتصار، بفضل الفارق الشاسع في الخبرة والانسجام بين لاعبيه، مقارنة بأفراد فريق المديرية: «لكنه لم يصل إلا منذ ساعتين وبعد ان تحمّل مشقة السفر ثلاث ساعات.. أما فريق المديرية فالأرض أرضه وقد كسب القرعة أيضًا».

في هذا الإطار يبدو الصمود ممكنًا، والتكافؤ النسبي رهين بالأداء الجيد الملتزم في إطار المتاح من إمكانات. لا تختلف المباراة جوهريًّا عن الحياة، التي تحمل تحديات ومصاعب تفوق طاقة العاديين من البشر، المثقلين بشتى الأعباء والهموم، لكن المقارنة حتمية لتحقيق أفضل نتيجة ممكنة. إن لم يكن الفوز مستطاعًا، فإن الأمل قائم في التعادل أو الهزيمة المشرفة غير المهينة.

في وصف الشاروني لمظاهر التغيير الجذري الذي يطرأ على إيقاع الحياة المألوفة في المدينة، عند إقامة المباراة، ما يكشف عن الشعبية الطاغية لكرة القدم، وتزداد الخصوصية بالنظر إلى أن الأقاليم لا تشهد مباريات كهذه إلا بشكل استثنائي نادر، وهو ما يحيل اليوم إلى عيد جدير بالاحتفاء والاحتفال: «كانت الحوانيت قد أُغلقت، فوقفت حركة البيع والشراء، وتعطلت المدارس والمصالح التي تعمل بعد الظهر، وانصرف الناس عن أعمالهم، وتدفقوا بالآلاف على

الملعب، ونفذت التذاكر وبيعت في السوق السوداء بأضعاف ثمنها، فلم يكن يحدث كل يوم أن يتبارى فريق المديرية مع فريق العاصمة».

أجواء كهذه لا تعرفها المدن الصغيرة إلا في أيام الأعياد المليئة بالبهجة، والحشود التي تمتلئ بها المدرجات تنهض دليلاً عمليًّا على تنوع جمهور كرة القدم واختلاف مشاربه وتوجهاته وأصوله الطبقية، فالإعجاب باللعبة الشعبية والحرص على متابعتها لا يقتصر على طبقة بعينها أو فئة عمرية دون غيرها: «تزاحم الجمهور بعضهم يرتدي الجلباب، وبعضهم يرتدي الملابس الافرنجية، وبعضهم يرتدي البيجاما. ومنهم من أتى بأعواد القصب أو حزم الخس، ومنهم من كان يحمل معه أكياس البرتقال واليوسفي.. وما أن وطئت أقدام اللاعبين أرض الملعب حتى هب الآلاف واقفين».

اختلاف الأزياء والسلوك بمثابة التأكيد على أن الإعجاب باللعبة شامل، ولا مشترك يوحد بين الحشود الهائلة إلا الحرص على المشاهدة ووحدة الانفعال بالصياح الجماعي عند التهيؤ لبداية المباراة، أداة التنفيس عن المشاعر، ووسيلة التقاط الأنفاس والتخلص من المفردات العادية المألوفة الراكدة.

يقدم الشاروني تزاوجًا متوازنًا محسوبًا بين كرة القدم والحياة الرحيبة خارج الملعب، فعلى مدى شوطي المباراة يتوزع اهتمام حارس المرمى بين حياته الشخصية العائلية ووقائع المباراة التي يشارك فيها. مركزه بالغ الحساسية والأهمية، ذلك أن حارس المرمى هو «نصف الفريق» كما يرى كثير من خبراء الكرة، والخطأ الذي يرتكبه يعني تسجيل هدف والتعرض للهزيمة، أما تألقه في الدفاع عن مرماه فيقود الفريق إلى تحقيق أفضل نتيجة ممكنة. ما أكثر أوجه الشبه بين مسئوليات حازم الواقعية والمهام الثقيلة التي يتحملها مع الفريق، فهو «حارس» العائلة وخط دفاعها الأول مثلما هو حارس مرمى فريق المديرية، ومن هنا تداخل الهموم الشخصية مع إيقاع المباراة المتغير، وأحداثها المتلاحقة دفاعًا وهجومًا.

بعد الوفاة المبكرة لأبيه، تئول مسئولية رعاية الأسرة إلى حازم، قبل أن يتجاوز عامه الخامس عشر. يتخلى عن دراسته ليعمل في شركة الغزل، والبراعة في كرة القدم أهم المؤهلات التي تتيح له الحصول على الوظيفة. يتحول اللعب إلى جزء من العمل، ولا متسع عند حازم لترف

الـتردد والاختيار: «فقد ذاب في أسرته الكبـيرة، وأصبح معها- كما أصبح مع فريقه- كالكتلة الواحدة يتحرك بها وتتحرك به».

موقعـه في الأسرة يحتّـم عليـه أن يتحمل المسـئولية دون نظر إلى حداثة عمـره، فهو الابن الأكـبر المطالب بالتضحية وقيادة السـفينة في بحر متلاطم الأمـواج. الأسرة مثل فريق الكرة كيان منسـجم يمثـل كتلة واحـدة، ولابد من قائد. في سـن العشرين، يتخلى حـازم عن مركزه كمدافع في الفريق الكروي، ويشـغل مركز حارس المرمى بعد إصابة الحارس السابق وانتقال الحـارس الاحتياطي من عملـه بالمديرية: «فرئى أن يحل حازم مكانه. ويومها تكشـف نبوغه الفطـري وتجلت عظمة موهبته حين اسـتطاع أن يصـد كرات صعبة تكاد تكون مسـتحيلة الصد، وهكذا تقرر يومها أن يصبح حارسًا لمرمى فريقه».

في الأسرة وفريـق الكـرة معًا، وبفعـل تدخلات وتحولات القدر، يقـع العبء الأكبر على حـازم، ويتحـول من طالـب إلى موظف ومن مدافـع إلى حارس مرمى. هل يسـتطيع أن يفعل شيئًا بمفرده؟!. الحياة والكرة معًا مزيج مركّب معقد من الدفاع والهجوم، والاحتياج ضروري ملح في السـاحتين للتعاون والترابط والتنسيق. لا خطر في الحياة واللعب يفوق سيطرة الأنانية البغيضـة وسـيادة النزعة الفرديـة المدمرة: «وكان حـازم يقف الآن متحفـزًا كنمر يدافع عن عرينه، وهو يراقب اللعب واللاعبين، وقد لاحظ أن خطأ فريقه الواضح هو أنانيتهم وألعابهم الفرديـة، ومحاولة كل منهـم إصابة الهدف وحده، فراحوا يشـتتون جهودهم عبثًا ويشـتتون الكـرة كيفما أُتفق. عـلى حين كان فريق العاصمة يلعب كمجموعـة متفاهمة متكاملة دفاعًا وهجومًا. وهكذا كان على حازم أن يتحمل العبء كله هنا أيضًا».

ليـس مـن مهام حازم أن يسـجل الأهداف مع فريقـه، ولا تُتاح له فرصـة تحقيق أحلامه الذاتيـة في ظل ضغـوط الأسرة ومشـاكلها. تضحيته الجسـيمة لا تقود إلى التـوازن ومواجهة هجمات الحيـاة والفريق المنافس، فالأمر رهين بشركائه الذين لا يتسـلحون بمنهجه الإيجابي، وتسيطر عليهم نزعة قوامها الأنانية وافتقاد روح الفريق.

الشـقيق الأصغر حمدي، بأنانيته وغياب الشـعور بالعبء الثقيل الـذي يتحمله حازم، لا يختلف عن لاعبي فريق المديرية في عشـوائيتهم وتحركاتهـم الفردية: «فإن أخاه حمدي، وهو

يصغـره مباشرة، كثيرًا ما كان يهـدم ما يتعب هو في بنائه، فرغم حرص حازم على أن يتم أخوه تعليمه العالي فلا يضطر للخروج من منتصف مراحل تعليمه كما اضطر هو، قابل حمدي هذه الرغبة الأخوية الصادقة بالعقوق، فأهمل دراسته وصادق رفقاء السوء ورسب مرة بعد أخرى، ثم مضى يرهق أخاه بمطالبه التي تتجدد يوميًّا».

ليس مستغربًا أن يستدعي أخاه المستهتر بعد أن تتلقى شباكه الهدف الأول في المباراة، ذلك أن الحارس وحده لا يستطيع أن يلعب منفردًا في مواجهة فريق كامل، في الملعب والحياة معًا، لكن بشائر الهزيمة لا تعني الاستسلام والخضوع، والهدف الذي يحرزه فريق العاصمة لا يمثل نهاية المطاف، كما أن سلوك الشقيق الأصغر لا يقود إلى تراجع حازم عن رعاية أسرته والدفاع عن وجودها: «ولهذا، وبعد لحظة واحدة، كان حازم قد نسي تمامًا أمر هذا الهدف، وظلت روحه المعنوية في مستوى مرتفع وكأنما كان يدرك أن عليه أن يستميت هنا أيضًا في الدفاع عن مرماه وعن فريقه بل عن مدينته كلها».

الهدف الذي يسجله فريق العاصمة لا يعني الوصول إلى محطة اليأس، والإرادة القوية لا تنكسر أو تغيب. قدر حازم أن يقاوم ببسالة، وهدف التعادل الذي يسجله فريق المديرية بمثابة التأكيد على أن الهزيمة ليست حتمية لا مهرب منها. الحياة ليست أحادية الاتجاه ولا يمكن أن تكون، وكذلك الأمر في مباريات الكرة: «وسرعان ما عادت الكرة تنتقل - كما تنقل حظ حازم يوم مات أبوه- من رأس إلى قدم ثم من قدم إلى جسم فإلى رأس في الهواء فخارج الملعب فداخله.. ولقد بكت أمه يوم سلمها أول مرتب له.. عدت المرتب أولاً، ثم قبّلت ابنها وهي تبكي حتى بللت دموعها خديه.. كانت حزينة لأنه حمل العبء صغيرًا، وكانت فَرِحة لأنه يحاول أن يملأ الفراغ الذي تركه أبوه».

لا يرضى فريق العاصمة بالتعادل، وتتوالى هجماته الشرسة، وكذلك حياة حازم بعد التضحية بدراسته والالتحاق بعمل يحقق عائدًا ماديًّا يعينه في تلبية احتياجات الأسرة. يخوض الحارس معركة عنيفة في مواجهة الفريق المنافس وتحديات الحياة، لكن جهوده الفردية لا تجدي نفعًا في الصراع المزدوج غير المتكافئ، وسرعان ما تتلقى شباكه الهدف الثاني. إنه ليس إنسانًا خارقًا حتى يتصدى وحده لعواصف عاتية لا قبل له بها، وفي لحظات الضعف والهزيمة

يلـوذ حازم بالتفكير في حبيبته أمينة، التي تتحمل مثلـه عبء رعاية أسرتها: «إنها أكبر أربعة إخـوة، ولقد مات والدها ومن بعده والدتها وهي ماتزال في أول حياتها العملية، وكان عليها أن توقف شبابها على خدمتهم..

ولهذا اندفع كلاهما نحو الآخر، ولم يزعجه أنها لا تستطيع أن تتزوجه الآن، ولا أزعجها أنه لا يستطيع أن يتزوجها الآن».

الإمكانات المحدودة لا يمكن أن تحقق نصرًا في معركة شرسـة كالتي يخوضها حازم، ذلك أنه إنسـان بسـيط مخلص ملتـزم، يؤدي واجبه كامـلاً بلا تقصير، ويتفـانى في العطاء دون ذرة من التردد، لكنه ليس بالبطل الأسـطوري الخارق الذي لا يضعف في مواجهة الشـدائد. عندما تحاصره الهموم والتحديات، تراوده أحلام الخلاص الفردي. لا شيء يشين في أحلامه هذه، ذلك أنه لا يستسلم لخيالاته ولا يسمح لها أن تقوده إلى مسار مختلف. يعي حقيقة قدراته كحارس، وإذا لم يكـن الانتصار الحاسـم ممكنًا، فـلا أقل من الصمود لتجنب الهزيمة السـاحقة الثقيلة: «وبدأ الشـوط الثاني والأعصاب متوترة والمشاعر ثائرة، والجمهور واجم يخشى أن يمني فريقه بهزيمة كبرى، أما حازم فكان قد صمم.. صمم أنه لن يدع الكرة تمر داخل شبكته مرة أخرى إلا وهو جثة هامدة».

مركز حارس المرمى هو الأخطر في الفريق، فعلى عاتقه تقع مهمة ثقيلة تتمثل في أنه خط الدفـاع الأخـير، والخطأ الذي يقع فيه يعني بلُغة كرة القدم تسـجيل هـدف، وهو ما يُترجم في الحيـاة خارج الملعب إلى كارثة لا ينجو منها الجاد والمسـتهتر على حد سـواء: «كان الجمهور يشـجع أعضـاء فريقه بحماس، ومع ذلك فكان يبدو أنهم مشـتتون، وكان حـازم أكثر الناس إحساسًـا بذلك، كان يشـعر أن خط دفاعه في حاجة إلى قائد يوجهه ويرشـده طوال المباراة، وكان يدرك هبوط عزيمة فريقه وضعف روحه المعنوية وعدم يقظة دفاعه في تشـديد الرقابة على مهاجمي فريق العاصمة وكل منهم لا يزال يبحث عن مجده الشخصي، فلا هو- ولا فريقه- يحصل عليه».

غايـة ما يقوى عليه حازم أن يسـتميت للحيلولة دون تسـجيل مزيد من الأهداف، لكنه لا يسـتطيع بحكم مركزه أن يسـجل أهدافًا. أعضاء الفريق والأسرة مشتتون فرديون أنانيون

يفتقدون الإحساس بالمسئولية، ولا يملكون موهبة الأداء الجماعي. انتصر حازم في ترويض الهزيمة حتى لا تتحول إلى فضيحة، وقُرب نهاية المباراة يتعرض للإصابة جراء اختلال توازنه وهو يتصدى لهجمة خطيرة. فرحة الجماهير عارمة ببراعته في الإنقاذ، والحب العميق يسكن قلوب متابعيه ومشجعيه. يقترب من غيبوبة تقوده إلى عالم كابوسي، تتغلغل فيه مفردات الحياة التي يكابدها خارج الملعب: الأم والشقيق الأصغر حمدي والحبيبة أمينة، فضلاً عن آلاف المشاهدين الذين لا يعرف أسماءهم ويعرفون بالضرورة تضحيته.

يستعين الشاروني بالمونتاج السينمائي المتقن، ليقدم تجسيدًا فنيًّا متوازنًا لأوجه التشابه الكثيرة الدقيقة بين كرة القدم والحياة، ومن خلال هذا التجسيد تكشف القصة عن الشعبية الكبيرة التي تحظى بها كرة القدم ونجومها في المدن الصغيرة. يتجاوز الشاروني حدود الوصف الخارجي والرصد السطحي، ويتطلع إلى إدراك «فلسفة الكرة» والسر في جاذبيتها وقدرتها غير المحدودة على ممارسة مثل هذا التأثير على محبيها. صلتها وثيقة بالواقع كأنها تعيد إنتاجه في صورة مكثفة، وهي أداة التنفيس مثل الفن المسرحي الذي يطهر النفوس.

❐❐❐

obeikandl.com